صاحب « الكرمل » لم يجد من اللائق نشر تلك القصيدة التي لا يمكن ان توصف الا بالخسة دون رد عليها تطوع لكتابته الشاعر وديع البستاني : خطاب « يهودا » ؟ ام عجاب من السحر ؟

وقول الرصافي ؟ ام كذاب من الشعر ، فريضك من در الكلام فرائد

وانت ببحر الشعر أعلم بالدر

ولكن هذا البحر بحر سياسة

اذا مد فيه الحق آذن بالجزر

أجل ! عابر الاردن كان ابن عمنا

ولكننا نرتاب في عابر البحر ...

ان هذه القصيدة الطويلة التي اشتهرت آنذاك كثيرا هي في الحقيقة وثيقة سياسية فذة ، فالمناقشة فيها لا تسفه الرصافي فحسب ، بل تثبت معطيات سياسية على غاية الاهمية في ذلك الوقت المبكر ، منها ، بالاضافة الى هجرة يهود اوروبا وخطرها ، دور بريطانيا في التجزئة العربية ، ووعد بلفور وآفاته ... الخ . وقبل ذلك بفترة وجيزة (في ١٩٢٠/٣/٢٨) كان وديع البستاني نفسه على رأس مظاهرة ، يقودها ويردد امامها نشيدا نظمه بنفسه ، وقد استدعي الشاعر الى التحقيق ، وجاء في ضبط التحقيق الاداري الذي قام به النائب العام :

« النائب العام : وردت بينات على انك كنت مرفوعا فوق الرؤوس ، وانت تقول ووراءك الجمهور : يا نصارى ويا اسلام !

المتهم : نعم

النائب العام : (وقلت ايضا) لمين تركتوا البلاد ؟

المتهم : نعم .

النائب العام : (ثم قلت) اذبحوا اليهود والكافرين ..

المتهم: لا . هذا اخلال بالوزن والقافية ، وما قلته كان مقفى موزونا ، وذا معنى ويقال له الشعر » ![٥٣].

ان الفترات اللاحقة ستشهد بروزا متعاظما لدور الشعر على وجه الخصوص ، ليعبر في مختلف المناسبات عما كان يعتمل في صدور الجماهير المغلوبة على أمرها ، فحين حضر بلفور من لندن ليشهد احتفال افتتاح الجامعة العبرية في ١٩٢٥ جاء الى الحفلة نفسها احمد لطفي السيد مندوبا عن الحكومة المصرية ، ويقول الشاعر اسكندر الخوري البيتجالي يومها موجها حديثه لبلفور :

من لندن هرولت تضرم نار هذي الواقعة
يا لورد ما لومي عليك فانت اصل الفاجعة
لومي علي مصر تمد لنا اكفا صافعة[٥٤]

ان ابراهيم طوقان وابو سلمى (عبد الكريم الكرمي) وعبد الرحيم محمود يمثلون منذ بدء الثلاثينات تتويجا لجيش من الشعراء الوطنيين الذين ألهبوا فلسطين طولا وعرضا بالتوعية والتحريض(*): اسعاف النشاشيبي، وخليل السكاكيني ،وابراهيم الدباغ ، ومحمد حسن علاء الدين ، وبرهان العبوشي ، ومحمد خورشيد ، وقيصر الخوري ، والخوري جورج ببطار ، وبولس شحاده ، ومطلق عبدالخالق .. الخ . وفي رؤى هؤلاء الثلاثة ، طوقان والكرمي ومحمود ، قدرة خارقة على استشفاف ما كان يحدث ، لا يمكن تفسيرها الا بأنها استيعاب عميق لذلك الذي كان يحتدم في اوساط الجماهير . ان ما يبدو في قصائد هؤلاء الثلاثة وكأنه نبؤة لا تفسير لها ، وتكهن يشبه الرجم بالغيب ، ليس في الحقيقة الا قدرتهم على التعبير عن هذه العلاقة الجدلية التي كانت تربط نتاجهم الفني بحركة المجتمع .

يقول ابراهيم طوقان مثلا تعليقا على انشاء « صندوق الامة » عام ١٩٣٢ لانقاذ اراضي فلسطين من البيع لليهود (وهو الصندوق الذي انشأته وقتذاك القيادة الاقطاعية ــ الاكليركية بحجة عدم تسرب أرض فقراء الفلاحين الى اليهود) : « ان ثمانية من القائمين على مشروع صندوق الامة كانوا سماسرة على الاراضي لليهود » :

حبذا لو يصوم منا زعيم
مثل غاندي عسى يفيد صيامه
لا يصم عن طعامه ، في
فلسطين يموت الزعيم لولا طعامه
ليصم عن مبيعه الارض يحفظ
بقعة تستريح فيها عظامه[٥٥]

(*) يقول توفيق زياد ، شاعر المقاومة في فلسطين المحتلة (الناصرة) : « ان شعرنا الثوري (محمود درويش ، سميح القاسم ، وانا) هو امتداد للشعر الثوري الذي أنشده ابراهيم طوقان وابو سلمى وعبد الرحيم محمود ومطلق عبد الخالق واخرون ... لان معركتنا هي امتداد لمعركتهم » (عن الادب الشعبي ــ دار العودة ، ص ١٤) .